[350] من عشيتكم، أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتليكم في مفازي الشام، وأن يأخذ البرئ منكم بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها، وتكلم الأشراف بنحو من ذلك. فلما سمع الناس مقالتهم أخذوا يتفرقون وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف ! الناس يكفونك، ويجيئ الرجل إلى ابنه أو أخيه ويقول: غدا تأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر ؟ انصرف ! فيذهب به فينصرف، فما زالوا يتفرقون حتى أمسى ابن عقيل، وصلى المغرب وما معه إلا ثلاثون نفسا في المسجد. فلما رأى أنه قد أمسى وليس معه إلا اولئك النفر، وخرج متوجها إلى أبواب كندة فلم يبلغ الأبواب إلا ومعه منهم عشرة ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان يدله، فالتفت فإذا هو لا يحس أحدا يدله على الطريق، ولا يدله على منزله، ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو، فمضى على وجهه متلددا في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب ؟ حتى خرج إلى دور بني جبلة من كندة، فمضى حتى أتى إلى باب امرأة يقال لها طوعة ام ولد كانت للأشعث بن قيس، وأعتقها وتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالا، وكان بلال قد خرج مع الناس، وامه قائمة تنتظره. فسلم عليها ابن عقيل فردت عليه السلام فقال لها: يا أمة ا اسقيني ماء فسقته وجلس ودخلت ثم خرجت فقالت: يا عبد ا ألم تشرب ؟ قال: بلى قالت: فاذهب إلى أهلك، فسكت، ثم أعادت مثل ذلك، فسكت، ثم قالت في الثالثة: سبحان ا يا عبد ا قم عافاك ا إلى أهلك فانه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا احله لك، فقام وقال: يا أمة ا ما لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة، فهل لك في أجر ومعروف، ولعلي مكافيك بعد هذا اليوم، قالت: يا عبد ا وما ذاك ؟ قال: أنا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء القوم، وغروني وأخرجوني، قالت: أنت مسلم ؟ ! قال: نعم، قالت: ادخل. فدخل إلى بيت دارها غير البيت الذي تكون فيه، وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعش، ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرآها تكثر الدخول في
